المحاضرة الثانية

النقد الأدبي في العصر الجاهلي

زعم البعض من نقاد ومؤرخي الأدب العربي أن العصور العربية الأولى تخلو من النقد ، وقدموا أدلة كثيرة على قولهم هذا ، وإن انصف بعضهم فقصدوا النقد المنهجي بقوانينه التحليلية الموضوعية ، وقواعده العلمية .

وقد انقسم مؤرخو الأدب إلى فريقين ، الأول يرى أن النقد العربي بدأ في عصر ما قبل الإسلام ، وفريق آخر يرى ان النقد المنهجي ، على نحو خاص ، بدأ في القرن الثاني للهجرة.

هذا الانقسام يعود في الأساس إلى رؤيتهم للعملية النقدية ، ففي الوقت الذي يرى فيه الفريق الأول أن الإنسان ناقد بطبعه ، ومتذوق بفطرته ، يطالب دائما بالأحسن والأجمل والأجود والأمثل في شؤون حياته كلّها ، ولن يشذّ الشعر والأدب عن هذا المبدأ ، ذلك أن قراءة الشعر وسماعه تقتضي تذوقّه ونقده ولا سيما إذا حدث ذلك من عارف بالشعر كالشاعر نفسه أو راويته ، وما أكثرهم في عصر الجاهلية.

ويرى الفريق الثاني أن مثل هذه الأحكام ليست من النقد في شيء ، وأن النقد الصحيح هو الذي يستند إلى قواعد وأصول ومنهج ، وهذا الأمر لم يحصل إلّا في القرن الثاني للهجرة.

وعلى الرغم من الاعتقاد بأن النقد الأدبي قبل الإسلام كان يرتكز أساسا على الذوق الفطري ، ويخلو في أغلب الأحيان من التعليل والتفسير ، إلّا أنه يمكن القول أن من يطالب بالنقد المنهجي العلمي بقوانينه ومناهجه المعروفة أن تتواجد في العصر الجاهلي فإنه بذلك يحاول تسليط مصطلحات حديثة على تراث فكري قديم ، الأمر الذي يؤدي إلى محاكمة فترة زمنية قديمة تاريخيا بأعراف معاصرة ، وليس هذا من البحث العلمي المنهجي ولا من الدراسة الموضوعية الجادة في شيء ؛ لذا يتطلب الأمر في مثل هذه الدراسات أن نبحث في خصائص ومميزات النقد الأدبي في عصر الجاهلية في إطاره الزمني والمكاني ، وهو ما نحاول البحث عنه في هذه الدراسة من خلال البحث في مستويات النقد في العصر الجاهلي ومن ثم الوصول إلى خصائصه ، وسماته ، ومميزاته .

النقد الذاتي

يتحدث الجاحظ عما أسماه بـ(عبيد الشعر) فيقول : ((ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله ، زماما على رأيه ، ورأيه عيارا على شعره ، إشفاقا على أدبه ، وإحرازا لما خوّله الله تعالى من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليّات ، والمقلّدات ، والمنقّحات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيدا ، وشاعرا مفلقا .

هذه العملية التي عرفت عند القدماء بـ(التنقيح)ما هي إلّا عملية نقدية ، إذ يعيد الشاعر النظر فيما يكتب مرات ومرات حتى يستقر على الشكل النهائي الذي يريد لنصه أن يكون عليه .

وفي أدبنا العربي القديم كانت عملية التنقيح تساير عمل القصيدة ، فقد ذكرت كتب الأدب نصا شعريا يتحدث عن عملية التخيّر والعزل التي يقوم بها الشاعر ليخرج القصيدة بصورة متميزة، فيقول :

أذود القوافي عنّي ذيادا ذياد غلام جرئ جراد

فلما كثرن وعنينه تخيّر منهن شتّى جياد

فالشاعر يردد النظر في عمله لينقح ، ذلك أنه حين يكون مستغرق الفكر في العمل قد لا يكون منتبها لبعض الهنات التي ترافق نصه الشعري ، فيعمد إلى مراجعة ما كتبه أكثر من مرة ليحذف ما ينبغي حذفه ، ويصلح ما يتعين إصلاحه ، ويكشف عما يشكل عليه من غريبه وإعرابه ، ويحرر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه ، ليصل إلى غايته المنشودة في إخراج نص شعري للمتلقين يقترب من الكمال الفني .

إن الشاعر يخضع منجزه الشعري لهذه العملية النقدية ليثبت ذاته أمام الآخرين ، وهي حالة من التحدي تواجه منشئ النص أمام

المتلقي ، ولا سيما إذا كان هذا المتلقي هو ممدوح الشاعر والمرتجى منه العطاء ونيل الصلات والجوائز .

ومما لاشك فيه أن غاية كلّ شاعر أن يصل بفنه الشعري إلى أقصى ما يستطيع من التجويد والإتقان ، ولكن هذه الغاية دونها عمل كثير، على الشاعر أن ينجزه على أكمل صورة حتى يصل تلك الغاية المنشودة .

فالشاعر حين يقوم بعملية تجميل نصّه الشعري ، يجب أن يختار مواطن محددة فيه تمثل حالات حاسمة تتطلب وقفة متأنية ، بحيث يعطي كل صورة جمالية حقها من الاستيفاء الفني كي يتحقق الغرض منها ، وهو التأثير في المتلقي ، أو مضاعفة حسنها في العيان أو المشاهدة.

ويمكن القول أن عملية صوغ الشعر العربي القديم على الرغم من وصفها بالعفوية إلّا أنها لم تخل من إعداد نفسي وتفكير ذهني ينهض بهما الشاعر قبل الصياغة ، وهكذا يعمد الشاعر إلى تهيئة القالب الذي يحتوي كلّ ما أراد وقصد إليه ؛ هذا الاعداد النفسي والتفكير الذهني الذي يتبعه الشاعر بقدر من النظر والتدبير ما كان ليحدث لو لم تكن هنالك أعراف وتقاليد شعرية تفرض على الشاعر أن يلتزم بها .

ونحن عندما ننظر في مبلغ الجودة التي وصلتها القصيدة الجاهلية ونقارن ذلك بـ(الحداء) الذي يظن أنه نواة الشعر العربي نعرف مقدار التهذيب والتنقيح الذي رافق عمل الشعراء حتى انتهى بهم إلى هذا الاتقان الشعري فيما وصلنا من نماذج الشعر الجاهلي ، ذلك أن التثقيف والتنقيح تصور إدراك الشاعر لقيمة الفن الشعري وما ينبغي أن يكون عليه من جمال ونضج.

ومن هنا يمكن لنا ان نستنتج أن العرب في تلك المرحلة كانوا على علم بدرجة معينة بالجمال الشعري ومقاييسه الفنية ، ومعطياته العامة ، ويؤكد ذلك ما ذكرناه من أن بعض الشعراء الكبار كزهير مثلا كان ينقح شعره ، فلا يخرج قصائده إلّا بعد حول كامل يقسمه على مراحل ، وهذه القصائد سميت بـ(الحوليات)

، ولا يكـــون التنقـــيح إلّا إذا أدرك الشـــاعر بعـــض النـــواحي التـــي يرتكـــز إليها في عمله هذا .

وعنايـــة الشـــاعر الجـــاهلي بشـــعره ، بـــالنظر فيـــه وتقويمـــه وتثقيفـــه منحـــى نقـــدي جـــاهلي ، ســـار علـــى نهجـــه كثيـــر مـــن الشـــعراء الـــذين تتابعوا عبر العصور .